صفحة من الادب الفرنسي القديم

رابليه والملحمة الهزلية

عند ما فتح العثمانيون بلاد الروم ودخلوها رحل عنها جماعة من العلماء حاملين كتب الاغريق والرومان فقصدوا الى ايطاليا وما يليها من البلاد الاوربية فانتشرت العلوم والآداب القديمة واقبل عليها الناس متدفقين متسابقين فكانت النهضة الاوربية وكان تداعي عهد القرون الوسطى . والذي ساعد على انتشار العلوم والآداب اختراع المطبعة فاستطارت الكتب وسهل على القوم اقتناؤها وتخاص العالم المستقرئ من الاستنساخ وما يقتضيه من عناء وتبذير

وقد ظهرت آثار النهضة منذ سنة ١٤٨٠ واذا وقفنا بحثنا على الادب الفرنسي رأينا شاعرين مجيدين ومفكراً مشهوراً صاحب مذهب بروتستانتي يدعى كالفين وكاتباً غزيراً جليل الشأن يقال له رابليه Rabelais

ولد رابليه حوالي سنة ١٤٩٠ في بلد مجهول حتى اليوم وتلقى العلوم السائدة في ذلك الزمن وعلق الدرس والتنقيب فحمله ابوه على ان يكون قسيساً فدخل ديراً من الاديار وشغل فيه بالعبادات كثيراً ولكنه لم يفتأ يعالج القراءة والدرس حتى استوت له بضاعة علمية حسده عليها كثير من الناس . وكان رابليه يتردد الى دار عالم فيجتمع فيها بالادباء وكثيراً ما كان يتحدث اليهم عن احوال القسيسين ويتحدثون اليه عن اطوار النساء . ثم ان رابليه شغف باللغة الاغريقية فطلبها واقبل عليها وكان رجال الدين يومئذ ساخطين على هذه اللغة ناقمين على من يتلمس معرفتها لان واحداً من الكتاب اعتمد عليها في نقد انجيل لوقا فاضطهد رئيس الدير رابليه فهجر الرجل الدير ولجأ الى اسقف مستنير بعيد عن التعصب واتفق له ان اجتمع عند الاسقف بشاعر غزير سريع النظم فنظم عليه القريض وبرع فيه ثم انه فرّ الى باريس ضجراً واستمع الى اساتذة السوربون ثم غادرها قاصداً الى جامعة مونبلييه حيث طلب الطب فنال الشهادة فيها ثم الف كتاباً ينقد فيه قانون ابن سينا ويدعو الناس الى قراءة الطب في الاصل اليوناني

وقد عرض لرابليه بعد ذلك كثير من الحوادث ولا بد من الاشارة اليها حتى نفهم

روح ملحمته . فلما صار رابليه دكتوراً في الطب قام بامر مستشفى عظيمة ثم استُدعي الى ان يرافق اسقف باريس الى روما فسافر اليها ثلاث مرات لان الاسقف اضطر الى ذلك لاسباب سياسية . وكان رابليه في اثناء ذلك يؤلف ملحمته الهزلية

ولاشك في ان رابليه اقتبس شيئاً عن كاتب فرنسي سبقهُ في تأليف رواية خيالية يعرض فيها لذكر السحر والسحرة والرقية والعذارى والرجال العظام ولكن موقف رابليه كان موقف رجل واسع الاطلاع مفكر واليك تحليل كتابه

وان رابليه يحدثنا عن مارد يسميه بانتاغرويل Pantagruel فيصف لنا قامته المفرطة وقوته الرائعة وشهيته العجيبة ثم يخبرنا عن تأديبه فينقد اساليب التعليم في السوربون ويحكم عليها بالنقص والقلة ويصفها بالتأخر ثم يتناول الاساتذة بالثلب وينتقد عليهم الجهل ويتزلهم منزل فقهاء لا علماء ويأخذ عليهم اكتفاءهم باللاطيني دون الاغريقي . ولكن لم يصرح بهذا النقد التصريح كله ولم يجعل الكتاب موقوفاً عليهِ بل اضاف الى النقد حوادث واخباراً غريبة مضحكة يتخللها شجاعة وجبن ومكر وخداع ويلحق بها نكتاً كثيرة واستهتاراً شديداً . ولما فرغ رابليه من رواية المارد اخذ يسوق حياة ابيه وسماه Gargantua . واسلوب رابليه هنا مثل اسلوبهِ هناك اذ لا يزال يخبرنا عن اسفار غريبة وحوادث اقرب الى الاساطير منها الى الحقيقة فان بطل الرواية يسرق ليلاً نواقيس بيعة باريس الا ان رابليه هنا تصرف شيئاً فشيئاً الى الوصف الوضعي والتماس الواقع دون الخيال مندفع في هجو المتكلمين اساتذة السوربون اندفاعاً شديداً عامد الى نشر آرائهِ الطريفة في السياسة والتربية والدين وفيها ما فيها من خروج على التقاليد . غير انهُ كفَّ بعد ذلك عن الهجو وعن سرد الحوادث الغريبة واعمال البطولة والشجاعة واتى في ناحية من كتابه عنوانها deTiers Livre الى التحدث عن الزواج إذ جعل بطلاً من ابطاله في حال تردد ازاء المزوبة فانتهز الفرصة ليملأ هذه الناحية من كتابه بالنكات المتواصلة بل ليبسط للقارىء مقدار معلوماتهِ والله يشهد انها غزيرة فاكثر من رواية الشعر الاغريقي والحكم اللاطينية وأخذ يدلي بحججهِ على ان النساء قاصرات عقلا فعلى الرجال ان يحافظوا عليهن ويحذروا كيدهن ولكن رابليه عاد في باقي الكتاب الى سياق الاخبار العجيبة ولاسيما الاسفار بحيث انا نراه في الجزئين الرابع والخامس le quart livre et le 5e livre يترك الابحاث العلمية والاجتماعية لينطلق بنا على اسطول الى بلاد لا يعلم بها أحد ولا بدَّ لنا من ان نقرّ ان الرجل ملمّ الالمام كله بفن الملاحة لدقة تعبيره عنها ولطف حديثهِ فيها . هذا وانهُ لم يستطع ان ينصرف عن النقد مع خوفهِ من المراقبة البرلمانية ومع حذره من غضب البابا فجعل في باب من

ابواب الملحمة ينبّه الى فسق رجال الدين وتداعي دعائم الكنيسة ويبطل دعوى الذين يقولون بعزوبة القسيس وفضح القضاة مشيراً الى حبهم للمال دون العدل

* * *

ذلك مجمل الملحمة الهزلية التي راجت ايام نُشرت فاسرع الناس اليها يقرأونها وأما اثرها فيهم فكان بعيداً جداً والدليل على ذلك انها نشرت عدة مرات وزاليه في عالم الاحياء وان رجال الدين هاجموها بكل ما بين جوانحهم من البأس والدهاء فأشاروا الى مواضع الالحاد فيها ونبهوا الى لهجتها التي لا تخلو من مجون وأحياناً من فجور. ثم ان اثر الملحمة لم يقف عند العهد الذي عاش فيه رابليه وانما ظل قوياً منتشراً حتى اليوم

ومما يحسن بنا ان نذكره ان كاتبين متقدمين تماه كثيراً اولهما موتين Montaigne ذلك انهُ اخذ عليه في كتابه المعروف Essais التبسط في رواية الشعر الاغريقي والحكم اللاطينية ورأى في هذا الامر شيئاً من الادعاء والرغبة في الظهور ولاسيما ان رابليه اكثر من الرواية وذهب فيها شوطاً بعيداً حتى انهُ ذكر الشعراء والحكماء وأثبت المظان وعمد في الكتابة الى اسلوب فلسفي علمي كأنهُ يريد ان يهول على القارىء ويملك عليه لبه. ولكن بين الرجلين وجهاً من الشبه لا ريب فيه ذلك انهما خارجان على الاسلوب الاتباعي ناهجان منهجاً حديثاً كلهُ جرأة سواء امن ناحية التعبير ام من ناحية التفكير وكثيراً ما يذكر القارىء ملحمة رابليه وكتاب موتين بين يديه

وأما الكاتب الآخر الذي نصب الحرب لرابليه فهو الخطيب المصقع الاسقف بوسويه Bossuet . ولطالما عجا الرجل صاحب الهزلة ورأى فيه لؤم الشيطان. ذلك أن رابليه تقم على تعليم الكنيسة وتفشل عليه قراءة الاقدمين من اغريق ورومان على حين ان بوسويه يعد الادب الاغريقي والادب الروماني دون الادب المسيحي. ومن يتصفح الكتاب الذي صنفهُ بوسويه وعنوانهُ Traité de la Concupiscence (في الشهوة) يرَ ان الرجل حامل على الاقدمين ناسب اليهم فجور المحدثين وسقوط همهم واعراضهم من الدين آخذ عليهم عنايتهم بأمر الدنيا دون الآخرة بل حاقد عليهم انصرافهم الى الفن والفلسفة والعلم لانهُ يرى فيها جميعاً غرور العقل البشري

هذا وان اخذنا نذكر من أعجب بالملحمة الهزلية ذهبنا بعيداً وحسبنا ان نقول ان فولتير اعترف لمؤلفها بالعبقرية الفياضة. وجدير بنا ان نشير الى تأثير الملحمة في كاتب مفكر فرنسي من القرن الثامن عشر يقال له مونتسكيو Montesquieu فلقد الف الرجل وهو حديث السن كتاباً ظريفاً عنوانهُ الرسائل الفارسية Lettres persanes نهج فيها منهج

رابليه من حيث النقد لا من حيث سرد الحوادث الغريبة اذ جعل ابطال رسائله رجالا انطقهم بما يجول في ضميره وما يدور في ذهنه فبسط آراءه بقوة ووصف بدقة وذم بشدة فجاء كتابه آية. ومن الغريب ان رابليه ومونتسكيو اتفقا في مسألة النساء. افلم احدثك ان رابليه حذر الرجال منهن واشار الى كرهن وخداعهن فهذا مونتسكيو في رسائله الفارسية يفصل في امر المرأة الشرقية ويحكم عليها بالقرار بيتها ومنع منها الخروج والظهور لشدة شهواتها ولوطأة الاقليم. ولو عاد مونتسكيو الينا اليوم لعجب مما في تركيا ومصر . . .

***

فانك ترى جلال شأن الملحمة الهزلية وشدة تأثيرها في الناس وفي الكتّاب وسخط بعضهم عليها وحذو غيرهم حذوها . الا ان الفرنسيين اليوم يقرأونها من دون ملل بل يقبلون عليها بشغف شديد لانهم يجدون فيها الروح الفرنسية تلك الروح اللطيفة الهازئة بكل شيء. ولكن قراءة الملحمة في لغتها الاصلية اي في لغة القرن السادس عشر صعبة جدًّا لشدة اختلافها عن اللغة الفرنسية الحالية. ولا بد للقارىء من قاموس يرجع اليه في كل جملة . ولقد انتبه الادباء الى هذا الامر الشاق فأخذ بعضهم يجقون الملحمة ويسهلون قراءتها على الناس ومن هؤلاء الادباء الاستاذ المعروف بباريس (روش) Fernand Roches وقد نشر الملحمة منهداً كلَّ جملة متبسطاً في درس كل لفظة غريبة عن الالفاظ الحالية وقد عالج لغة الملحمة عدة ادباء آخرين ولكنهم لم يوفقوا في عملهم توفيقهُ

والذي ينبغي لنا ان نذكره ان قراءة الملحمة حملت الفرنسيين على حب رابليه حبًّا جمًّا فخصصوا له مجلة سموها مجلة الابحاث المتعلقة برابليه وهذه المجلة من الطراز الاول لانها لا تهتم الا بما يمتُّ بسبب الى احوال صاحب الملحمة فتارة تبحث في سنة ولادته وطوراً تنقب عن اعماله الطبية وكثيراً ما تعود الى مراجعة ما سطره يده حتى تطمئن الى صحة الكتاب المتداول. وقد ظهر اخيراً ان الجزء الخامس من الملحمة مشكوك فيه لان الاسلوب يختلف بعض الاختلاف عن اسلوب الاجزاء الاخرى وفي المسألة نظر لان رابليه تحول في شيخوخته عما كان عليه في شبابه ثم ان حذره من المراقبة الدينية جعله يبدل من اسلوبه الفارس العنيف ولو قليلاً . وختاماً فهذه المجلة ترفع النقاب عن كل ما ستر من حياة رابليه وتمهد ملحمته بالبحث المستديم عنها تنتهي الى نتيجة جديدة او علها تحبب الرجل الى الناس فوق ما يحبونهُ

باريس ف.